مكتبة نيافة الأنبا غريغوريوس على الانترنت

المبادىء المسيحية في مجال التطبيق العلمي

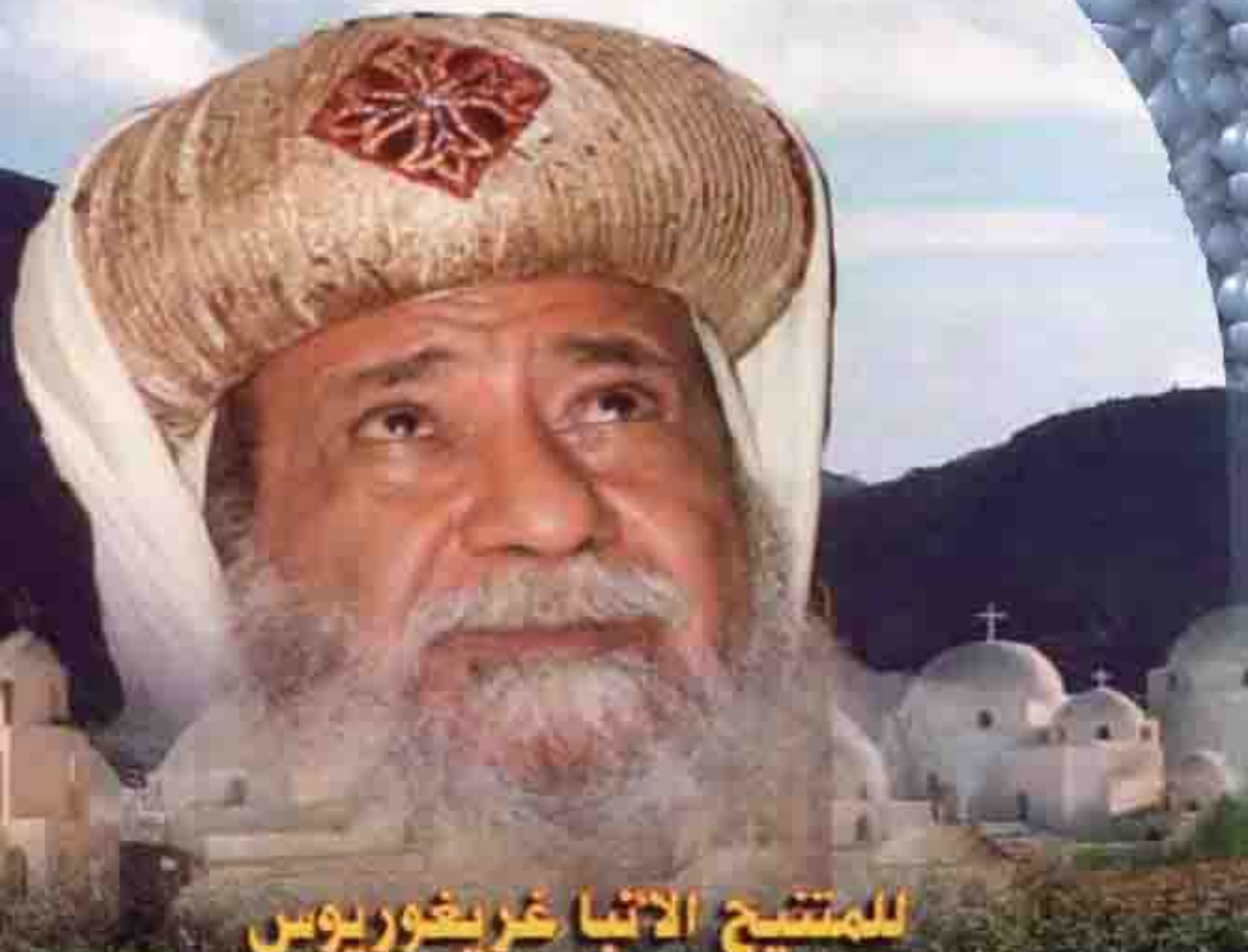

للمتنيح الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمي

المبادئ المسيحية
فى مجال التطبيق العملى

بقلم
المتنيح الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمى

المبادىء المسيحية
فى مجال التطبيق العملى

يشكو بعض الناس من أن المسيحية ديانة خيالية، أو على أقل تقدير، ديانة مثالية لا تتفق مع واقع الحياة لأنها تتطلب مستوى أخلاقياً أعلى من المستوى الذى يمكن أن يجده أو يمارسه الناس فى الواقع.

وهذا الكلام ليس جديداً ولكن بين وقت وآخر تظهر اتجاهات من هذا القبيل. فلقد مرت بريطانيا مثلاً فى القرن الخامس للميلاد بموجة انحلال أخلاقى، وجعل الناس فى هذا الوقت يظنون أن المبادئ المسيحية مبادئ مستحيلة، مبادئ غير ممكنة، مبادئ عالية على مستوى الإنسان، ولذلك أمسى الناس فى بريطانيا، فى القرن الخامس، فى حالة يأس عن البلوغ إلى المستوى الذى تتطلبه المسيحية فى أخلاقياتها. قالوا أن الكمال لله، والكمال غير ممكن للإنسان. يقول مخلصنا «فكونوا إذن كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات كامل» (متى ٥: ٤٨)، ولكن من مِن الناس يمكنه أن يبلغ إلى هذا المستوى العظيم؟

وهذا هو الذى دعا بيلاجيوس الراهب البريطانى، أن يندفع فى مبدأ الأمر بغيرة مسيحية ليعلّم الشعب فى ذلك الزمان، أن الكمال بالنسبة للإنسان غير مستحيل، وأنه لو لم يكن فى مقدور الإنسان أن يبلغ الكمال لما كان الله يطالب الإنسان بالكمال، وإلا فإننا نكون قد إتهمنا الله إما بالجهل بطبيعتنا، أو بالظلم للإنسان، لأنه يتطلب منه شيئاً يعلم تعالى أنه فى غير مقدور الإنسان أن يصل إليه. ولكن بيلاجيوس اشتط فيما بعد ووقع فى هرطقة نتيجة مغالاته فى قدرة

الإنسان على البلوغ إلى الكمال، لدرجة أن أنكر دور النعمة فى حياة الإنسان، كما أنكر انتشار الخطيئة الأصلية، وأنكر الفساد فى طبيعة الإنسان، وأنكر بالتالى حاجة الأطفال إلى المعمودية.

على كل حال كان هذا مثلاً على تفكير الإنسان أو مجموعة من الناس فى وقت ما من الأوقات ممن يرون فى المسيحية أنها تتطلب مثلاً أعلى يصعب على الإنسان أن يبلغ إليه.

بل وماذا نقول؟ نقول حتى القديس أوغسطينوس قبل أن يصبح مسيحياً سمع عن المسيحية من أمه القديسة مونيكا، ولكنه هو أيضاً - وكان مغلوباً من شهواته ونزواته وطياشته الشبابية - كان يرى أن المسيحية ديانة غريبة وعجيبة ومستحيلة، وأنها ضربت فى الخيال بعيداً، وأنها تتطلب مستوى فى الأخلاق ليس فى مقدور الإنسان أن يصل إليه، أو على الأقل، أن أوغسطينوس اعترف أنه هو شخصياً يستحيل أن يكون يوماً من الأيام مسيحياً لأنه - وقد عرف طبيعته وعرف أنه مغلوب من شهواته ونزواته كشاب - يرى أنه من المستحيل عليه أن يكون يوماً من الأيام مسيحياً، ولذلك فقد أبغض المسيحية فى مبدأ الأمر واعتبرها شيئاً غير ميسور؛ لا يقدر أحد على الأرض أن يبلغ إليه. على أن أوغسطينوس فيما بعد أدركه تطور كبير فى حياته النفسية، وفى إدراكاته الروحية، بحيث أنه - فيما بعد - دخل إلى المسيحية فى عمق كبير وفرح عظيم، ورأى فيها أنها الديانة التى غفل عنها زماناً طويلاً من حياته، وأنها الديانة الوحيدة التى ترفع مستوى الإنسان من دون أن تتطلب منه شيئاً فى غير مقدوره.

وإلى زماننا هذا نجد من وقت إلى آخر أناساً من البشر يرددون هذه العبارات، ويرددون معها الآهات والأنات. بل وأحب أن أقول إننى سمعت هذا أيضاً حتى من بعض شبابنا المتدين الذى تربى بين أحضان الكنيسة وفى مدارس التربية الكنسية، وكان من بين المبرزين فى الحياة الروحية أيام أن كان طالباً فى دور العلم، وطالباً فى مدارس التربية الكنسية أو خادماً فيها، ثم أصبح موظفاً أو دخل فى معركة الحياة العملية وبدأ أن يكون له زوجة وأولاد، وبدأ أن يكون رئيساً أو مرؤوساً فى عمل ما من الأعمال، فصار يشكو من الهوة التى أخذت تتسع شيئاً فشيئاً بين المستوى الذى تعلّمه فى الكنيسة وفى مدارس التربية الكنسية وبين المستوى الذى أمسى يرى أن الحياة العملية تتطلبه، وبدأت الشقة تتسع شيئاً فشيئاً بين المستويين.

على أن بعضاً من شبابنا كان أصرح من البعض الآخر، فالبعض يشكو فى صراحة. أما البعض الآخر فكظم غيظه فى نفسه، وربما لا يستطيع أن يفصح عما فى خبراته الجديدة، فانصرف عن الحياة الروحية بالكلية، وبدأنا نرى بعض الشخصيات الروحية تختفى من محيط الخدمة، أو من محيطنا الكنسى بصفة عامة، بعد أن أدركوا أن المستويات التى تعلموها، لم تعد فى نظرهم الجديد صالحة للحياة العملية التى أصبحوا فعلاً يصطدمون بها فى الواقع الحى.

من هنا ندرك أهمية الموضوع الذى نتكلم عنه «المبادئ المسيحية فى مجال التطبيق العملى». ولربما كان لبعض الخدّام مسئولية واضحة فى هذا الخلف وفى هذه الهوة التى بدأت تنشق أمام الشباب وأمام الناس، بين المثل العليا التى تتطلبها المسيحية وبين واقع الحياة العملية، «والأعمى إذا قاد أعمى سقطا كلاهما فى حفرة» (متى ١٥: ١٤)، (لوقا ٦: ٣٩).

من أجل هذا رأينا أن نكتب فى بعض المبادئ المهمة لنحدد موقف المسيحية منها، كما علّم بها المسيح مخلصنا، ورسله القديسون وآباء الكنيسة المعتبرون أنهم أعمدة.

المغفرة وحدودها فى المسيحية

المغفرة وحدودها فى المسيحية. كيف نغفر، وإلى أى مدى يمكن أن نغفر؟ نحن نعلم أن مخلصنا يقول فى الإنجيل «لأنكم إن غفرتم للناس زلاتهم، فإن أباكم السماوى يغفر لكم أنتم أيضاً زلاتكم. أما إن لم تغفروا للناس زلاتهم، فلن يغفر لكم أبوكم زلاتكم». (متى ٦: ١٤، ١٥).

ونفس المعنى تقريباً نجده فى الإنجيل للقديس مرقس، يقول «ومتى قمتم للصلاة وكان لكم على أحد شئ فإغفروا له، لكى يغفر لكم أنتم أيضاً أبوكم الذى فى السماوات زلاتكم. فإن لم تغفروا، فلن يغفر لكم أيضاً أبوكم الذى فى السماوات زلاتكم» (مرقس ١١: ٢٥، ٢٦). ويقول الكتاب المقدس «إغفر لقريبك ظلمه لك، فإذا تضرعت تمحى خطاياك. أيحقد إنسان على إنسان ثم يلتمس من الرب الشفاء» (يشوع بن سيراخ ٢٨: ٢، ٣).

وضرب لنا فادينا له المجد مثلاً بالعبد الذى كان مديوناً لسيده بعشرة آلاف وزنة، وسامحه سيده فى العشرة آلاف وزنة، ولكنه لم يرحم رفيقاً له كان مديوناً له بمائة دينار، فغضب عليه سيده، ودفعه إلى المعذبين حتى يوفى جميع ما له عليه، لأنه لم يرحم رفيقه كما رحمه سيده، ويقول رب المجد: «فهكذا يفعل أبى السماوى أيضاً بكم أنتم إن لم يغفر كل منكم لأخيه زلاته من كل قلبه» (متى ١٨: ٢٣ ـ ٣٥).

معنى هذا أنه مطلوب منا أن نغفر لمن أساء إلينا، بل أن مغفرة الرب لخطايانا تتوقف على مغفرتنا لمن أساء إلينا.

إلى أى حد يكون غفراننا للمسيئين إلينا؟

سأل مار بطرس الرسول ربنا يسوع المسيح هذا السؤال، وقال له: «يا رب إلى كم مرة يخطئ إلىّ أخى فاغفر له؟ أإلى سبع مرات؟ فقال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين سبع مرات» (متى ١٨: ٢١، ٢٢)، وليس المقصود هو هذا العدد ٤٩٠ (حاصل ضرب ٧٠ × ٧)، لكن المقصود هو استعداد المسيحى لأن يغفر لأخيه مغفرة بغير حدود.

وقال رب المجد أيضاً فى موعظته على الجبل: «فإذا جئت إذن بقربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك عليك شيئاً، فاترك هناك قربانك على المذبح واذهب أولاً وصالح أخاك، ثمّ تعال وقدّم قربانك» (متى ٥: ٢٣، ٢٤).

من هنا نفهم أن الغفران مطلوب، وأن هذا الغفران شرط لحصول الإنسان على رضا الله، وأنه بدونه لا يكون له هو أيضاً مغفرة أمام الله. ثم أنه ليس لهذا حدود أو قيود.

ما مدى هذا الغفران؟

هنا نأتى إلى سؤال آخر: إنسان يخطئ ضدى دائماً فهل أغفر له دائماً؟ إنه يجئ وقت يتضايق فيه الإنسان ويتذمر قائلا: وإلى متى؟ خاصة وأن هناك شخصاً لا يخطئ إليك جهلاً، بل يخطئ عمداً وقصداً، فماذا تصنع فى هذه الحال؟

شخص يدوس على قدمك ثم يقول لك «سامحنى، أخطأت». هنا تجد من واجبك أن تغفر له، لأنه قد يجوز أن يكون قد داس على قدمك خطأ وجهلاً.

لكن ماذا تصنع لو أن هذا الشخص داس على قدمك قصداً وعمداً، ثم يسخر منك بكلمة «سامحنى»، يقولها وهو عالم أنه سيدوس على قدمك مرة واثنتين وعشرة وعشرين مرة، وهو مطمئن إلى أنك ستغفر له. إنه يطالبك بتنفيذ شريعة الغفران، ولكنه لا يطالب نفسه بأى إلتزام. أليست هذه الظاهرة مألوفة فى عالمنا اليوم؟!!

حق المسيحى فى معاتبة المسىء إليه

إن ما قلناه عن الغفران هو نصف الحقيقة، هذا النصف هوالذى يتكلم به وعاظنا من على منابر التعليم، ولكنهم يهملون عادة النصف الآخر من الحقيقة. وهو ما يطّم به مخلصنا فى موضعه.

وهذا هو ما يقوله ربنا وفادينا «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفراد. فإن سمع لك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع لك فخذ معك واحداً أو اثنين آخرين، كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة، فإن رفض أن يسمع لهم فأخبر الكنيسة. فإن رفض أن يسمع للكنيسة فليكن بالنسبة إليك كوثنى وعشار» (متى ١٨: ١٥ ـ ١٧).

هنا نريد أن نضع خطاً سميكاً بل عدة خطوط تحت كلمة «**إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفراد، فإن سمع لك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع لك، فخذ معك واحداً أو اثنين آخرين**». وهذا هو النصف الثانى من الحقيقة. وهو المكمل للنصف الأول. فلقد عرفنا أن من واجبنا أن نغفر لمن أساء إلينا جهلاً أو من غير عمد، ولو كان ذلك مئات المرات. لكن مخلّصنا نفسه أعطى للإنسان حق معاتبة من أخطأ إليه. أنه لم يقل (اغفر) بلا قيد أو شرط، بل أعطى للإنسان حقاً فى أن يعاتب

من أساء إليه. وهذه نقطة مهمة فى العلاقات الإنسانية المسيحية. وكما يقول الكتاب المقدس فى سفر يشوع بن سيراخ : «عاتب صديقك فلعله لم يفعل، وإن كان قد فعل فلا يعود يفعل. عاتب صديقك فلعله لم يقل، وإن كان قد قال فلا يكرر القول. عاتب صديقك فإن النميمة كثيرة. ولا تصدّق كل كلام فربّ زالّ ليست زلته من قلبه» (ابن سيراخ ١٩: ١٣ ـ ١٦).

إذن من حق الإنسان أن يعاتب من أساء إليه. وهذه المعاتبة نافعة وضرورية، حتى يعرف المسيء أن الفعل أو القول الذى أساء به إلى غيره قد جرح شعور هذا الغير وأذاه. فإذا لم تكن هناك معاتبة ربما كان المسيء لا ينتبه إلى خطئه، وربما أيضاً يتمادى فيه إما عن جهل أو عن قصد. لابدّ للمسيء أن يتبين أنه لا يعامل حيوانات أو جمادات، بل يعامل كائنات بشرية حية لها شعور ولها إحساس ولها كرامة، وأنه بتصرفه أو بكلماته قد أذى شعور غيره ومسّ كرامته.

إن المعاتبة تشعره بخطئه وتنبهه إلى نتائج تصرفه بالنسبة إلى غيره إذا لم يكن منتبهاً إلى ذلك. ثم هى توقفه عند حدّه فلا يتمادى فى تصرفه أو قوله إلى ما هو أبعد. وهذا معنى قول الكتاب المقدس «عاتب صديقك فلعله لم يقل. وإن كان قد قال فلا يكرر القول».

من دون المعاتبة والمحاسبة والمواجهة قد لا يتبين المسيء مدى إساءته، ومدى الأثر الذى أحدثه تصرفه أو قوله فى نفوس الذين أساء إليهم. فيبدأ أن يتعلم كيف يحسب لتصرفه وكلامه حساباً قبل أن يتصرف وقبل أن يتكلم، وعلى هذا الأساس تتقدم العلاقات الإنسانية، ويتعلم الصغار والكبار كيف يعاملون الناس، وكيف يرعون آداب الحديث وآداب التصرف.

كم من الناس الذين نعايشهم ينفجر فى غيره - حينما ينفعل - بغير حساب بكلمات مؤلمة بذيئة جارحة، ومع ذلك يفاخر بنفسه ويقول أنا إنسان أبيض القلب: أغضب ولكننى سريعاً ما أصفح، اشتم ولكننى لا أحقد.

أيها الأخ! أتمدح نفسك على ذلك؟ كيف تجرؤ على أن تصف ذاتك بنقاوة القلب وصفاء الضمير، بعد أن تكون قد أفرغت سمّك فى غيرك، وبعد أن تكون قد آذيت شعوره، وآلمته بتصرفك وبكلماتك، وهدرت كرامته، ومزّقت أحشاءه من الغيظ والألم؟ إنك قد نفّست عن نفسك، ولكنك نفثت شرّك فى قلب غيرك، فأنت استرحت على حساب إيلام غيرك!

ألا تعلم يا أخى أن الكلمة الجارحة تكون أحياناً أحدّ من السيف؟

ألا ترى أنه فى بعض الأحيان يتمنى الإنسان الموت، على أن يسمع كلمة جارحة؟

لذلك كانت المعاتبة لازمة وضرورية، حتى يتبين المخطئ مبلغ خطئه، ويعرف مدى الجرح الذى أحدثه فى غيره بسوء تصرفه أو قبح كلماته، وحتى لا يعود من جديد إلى مثل هذا التصرف المؤلم.

هذا فضلاً عما فى المعاتبة من كشف الحقيقة التى قد تكون مجهولة من كل من المسيء والمساء إليه. فقد يكون التصرف أو الكلام ببراءة أو بحسن قصد، وقد يكون أحد الطرفين أو كلاهما قد أساء الفهم. فالمعاتبة تجلو ما فى قلوب الناس من مشاعر المرارة، لأنها تنير أمام الأطراف المتنازعة ما عساه أن يكون قد نشأ من غضب نتيجة لسوء الفهم أو سوء التعبير.

ثم أن هناك بعض التصرفات أو الأقوال تنقل إلى الناس نقلاً عن طريق وسطاء. والنقل قابل لأن يفسد العلاقات بين الناس، سواء كان ذلك لعدم أمانة

الناقل، أو لعدم دقته فى النقل. وعدم الأمانة شر مقصود، وعدم الدقة شر غير مقصود. ولكن كلاهما شر وينجم عنه شر أو مجموعة شرور. وكم من البلايا والحروب والمنازعات والمخاصمات نشبت بين الأفراد والعائلات بسبب نقل أنباء أو تصريحات أو أقوال لم يرع الذين نقلوها، الأمانة والنزاهة ثم الدقة فى نقلها.

لذلك كانت المعاتبة، ولا سيما بالمواجهة، نافعة بل ضرورية، لأنها تجلو الحقيقة، ولا تدع فرصة للنميمة وما يتبعها من مضار وشرور.

يقول النص الإلهى المقدس: «عاتب صديقك، فلعله لم يفعل. وإن كان قد فعل فلا يعود يفعل. عاتب صديقك، فلعله لم يقل. وإن كان قد قال، فلا يكرر القول. عاتب صديقك، فإن النميمة كثيرة. ولا تصدق كل كلام. فرب زالّ ليست زلته من قلبه».

إذن لقد أعطاك الرب الإله حق المعاتبة. فمن حقك أن تعاتب من أساء إليك. وقد تتنازل أنت عن هذا الحق، وقد لا تتنازل عنه، لكنه على كل حال، هو حقك تملكه. وليس نقصاً منك، أو شراً أو خطأ، أن تعتب على من أساء إليك، بل أنه من النافع أحياناً ومن الضرورى أحياناً أخرى، أن تمارس هذا الحق، لصالحك أنت، ثم لصالح الآخرين.

أما لصالحك، فلأن معاتبتك من أساء إليك تريحك، إذ أنها تغسل الألم، وتشفى النفس، وتأسو الجراح. ولقد أصابوا إذ قالوا فى الأمثال: «العتاب صابون القلوب».

وأما لصالح الآخرين، فلأنه بالمعاتبة يتعلم الناس الحذر والحرص، من أن يقذفوا بالكلمات والتصرفات من غير وعى أو تدقيق، ويوجعون بها غيرهم من

دون مبالاة بمشاعر هذا الغير، يقول مخلصنا يسوع المسيح: «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه.. فإن سمع لك فقد ربحت أخاك» (متى ١٨ : ١٥).

وإذن ففى المعاتبة كسب للآخرين، وربح لمحبتهم وصداقتهم.

إن حق المعاتبة حقيقة مسيحية لا تقل خطراً وأهمية عن حقيقة الصفح والغفران للمسيئين إلينا، التى تنادى بها المسيحية. والمسيح له المجد هو الذى علم بالمعاتبة كما علم بالغفران للمسيئين. فليس من الأمانة أن نبرز من تعليم المسيح نصفه ونبتلع النصف الآخر. لقد علمنا المسيح فادينا أن نغفر للمسيئين إلينا من كل قلوبنا، بل قال «إن لم تغفروا للناس زلاتهم، فلن يغفر لكم أبوكم الذى فى السماوات زلاتكم» (متى ٦ : ١٥)، (مرقس ١١ : ٢٦). ولكنه قال أيضاً: «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه» (متى ١٨ : ١٥).

وماذا بعد المعاتبة؟

يقول المسيح له المجد: «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفراد، فإن سمع لك فقد ربحت أخاك» (متى ١٨ : ١٥).

على أن مخلصنا يعلم أن المعاتبة قد لا تجدى أحياناً. ولذلك يتحوط فى تعليمه، ويرشدنا إلى التصرف اللائق فيما لو أن المعاتبة لم تنتج الخير المأمول منها. فيتابع الرب حديثه وتعليمه الصالح، قائلاً: «وإن لم يسمع لك، فخذ معك واحداً أو اثنين آخرين، كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة» (متى ١٨ : ١٦).

نعم، فقد يسمع لك أخوك، وقد يتقبل عتابك عليه بروح طيبة، وقد يعتذر لك عن إهانته وإساءته، اعتذاراً يرضيك. وبهذا تكون قد أربحت نفسك، وربحت أخاك، وكسبت مودته وصداقته من جديد.

حق الاحتكام للآخرين:

ولكن هب أن أخاك لم يسمع لك، كما قد يحدث أحياناً. وهب أنه ثار فى وجهك مبرراً ذاته، مدافعاً عن تصرفاته، فماذا تفعل؟

إن رب المجد يطالبك بخطوة جديدة عملية يجب عليك أن تخطوها. هذه الخطوة هى: «وإن لم يسمع لك، فخذ معك واحداً أو اثنين آخرين، كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة».

وهذا معناه أن الرب قد أعطاك حقاً جديداً، بالإضافة إلى حق المعاتبة، هو حق الاحتكام إلى الآخرين.

فعندما يتعذر التفاهم بين اثنين، ويعسر على المسىء أن يعترف بخطئه بسبب كبريائه وأنانيته وذاتيته، لا يشاء الله أن يضيع الحق هدراً. ولا يسمح الله أن تكون فضيلة الصفح والغفران عند الأبرار والصديقين، تبريراً للطغيان والتجبر عند المسيئين إليهم. فالله يحب الحق، ولا يرضى بالظلم. فما دامت هناك إساءة قد وقعت فعلاً، فلا بد أن يكون ثمت مسىء. ولابد أن يعرف هذا المسىء مبلغ إساءته، حتى لا يهدر الحق، وحتى لا يتجبر الطغاة. فإذا لم يعترف المسىء بخطئه، فلابد أن يكون هناك من يثبت عليه خطأه، ورفعاً ليد الظلم والمسىء، عن المظلوم والمساء إليه.

ومع أن حكم الغير على المسىء أصدق من حكمه على نفسه، أو لنفسه، إلا أنه ضماناً للعدالة، وكفالة للإنصاف، أمر رب المجد أن لا يكون الحكم من جانب رجل واحد ، وإنما من قبل اثنين آخرين أو ثلاثة «كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة».

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الخطأ الذى يتكلم عنه رب المجد يسوع المسيح، هنا، هو خطأ الإساءة الشخصية، أو الإهانة الشخصية، مما يجرى بين الأخوة فى المجتمع بالنسبة لقواعد المعاملات اليومية والشخصية.

ثم إن مخلصنا يقول «إن أخطأ إليك أخوك» وهذا معناه إن الخطأ المقصود هو الخطأ بالفعل، وليس ما يتوهمه الإنسان أنه خطأ، وليس ما يدعيه على صاحبه، إفتراء وظلماً وافتئاتاً.

وهنا حكمة الاحتكام إلى آخرين ليكونوا بمثابة محكمة عرفية غير رسمية، أو لجنة تحكيم ومصالحة، تدرس موضوع الإساءة، وتتدخل لحل النزاع. هذه اللجنة الصغيرة المؤلفة من عضوين أو ثلاثة أعضاء، ينبغى أن يتصف أعضاؤها بالحيدة والإنصاف، ومحبة الحق، وبروح المحبة والسلام.

حق الاحتكام إلى رجال الكنيسة:

بعد أن أعطاك ربك حقك فى معاتبة من أخطأ إليك، بينك وبينه على انفراد فإذا لم يسمع لك، فمن حقك «أن تأخذ معك واحداً أو اثنين آخرين كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة» بمضى الرب يسوع إلى احتمال أبعد.

هب أن أخاك الذى أخطأ إليك تقسى وتجبر ولم يقبل عتابك عليه، ولم يقبل تدخل الآخرين كبرياء، وترفعاً، وإيغالاً منه فى الحقد والكراهية فماذا تصنع؟

لقد أعطاك ربك حقاً آخر، هو حق الاحتكام إلى الكنيسة، إلى قيادتها الروحية وإلى مجلسها.

يقول المسيح له المجد:

«فإن رفض أن يسمع لهم فأخبر الكنيسة» (متى ١٨ : ١٧).

ولابد أن يكون المقصود بالكنيسة هنا هو قيادة الكنيسة، ومجلسها المحلى.

ذلك أن الخطوة السابقة، هى فى احتكامك إلى اثنين أو ثلاثة تأخذهم معك إلى أخيك الذى أخطأ إليك. ولابد أن تكون هذه اللجنة الصغيرة من أعضاء الكنيسة ومن بين المؤمنين فيها، وليس من المعقول أن يكونوا من غير المؤمنين أو من الخوارج.

يقول الكتاب المقدس:

«أيجرؤ أحدكم إذا كانت له دعوى على غيره أن يقاضيه لدى الظالمين وليس لدى القديسين؟ أما تعلمون أن القديسين سيدينون العالم؟ فإن كان العالم يدان بكم أفتكونون غير أهل للمحاكم الصغرى؟ أما تعلمون أننا سندين ملائكة؟ فما أولانا بأن نحكم فى قضايا هذه الحياة. فإن كان لكم محاكم فى أمور هذه الحياة، فأجلسوا المحتقرين فى الكنيسة للقضاء. أقول هذا لإخجالكم» (١ . كورنثوس ٦: ١ ـ ٥).

وقياساً على هذا أمرت الدسقولية (تعاليم الرسل) بتشكيل محكمة كنسية فى كل إيبارشية، تتألف برئاسة الأسقف ومن قسوس الإيبارشية وشمامستها للنظر فى شكاوى المؤمنين، والفصل فيها.

جاء فى الدسقولية:

ليحضر معكم يا أساقفة، فى مجلس الحكم، القسوس والشمامسة واحكموا بلا أخذ بالوجوه، بل بعدل، كأناس الله.. وليكن اجتماعكم للأحكام من يوم الاثنين فإن كل ثمة خصومة فصلتم فيها، وتتفرغون لذلك طوال الأسبوع إلى يوم السبت، إلى أن تنقضى الخصومة، حتى إذا كان يوم الأحد المقدس تكونون قد أصلحتم بين المتخاصمين، وإذا حضر عندكم الخصوم، فليقف الفريقان أمامكم فى وسط مجلس الحكم كما قالت الشريعة، وإذا سمعتم خصومتهم فأحكموا بينهم بالحق والعدل. ولا تحكموا بقول خصم واحد قبل حضور

خصمه، بل إذا اجتمع الخصمان فأحكموا بينهم بالعدل.. وفى جلوسكم فى موضع الحكم، ومعكم الفريقان يختصمان وجهاً لوجه، فلا تسموهما أخوة إلى أن يصطلحا، وأفحصوا عما بينهم بالحقيقة. وقد قلنا أنه يجب أن لا يحكم على خصم واحد بغير حضور الفريقين معاً، لأنكم إذا سمعتم كلام فريق واحد وحجته فى دعواه التى يدعيها، وأوجبتم قضيته، وقطعتم الحكم بسرعة، والفريق الآخر ليس حاضراً معكم ليجيب عن نفسه، ويحتج عما نسب له، فإنكم تكونون مستحقين للقتل الذى حكمتم به، وتوجدون أمام الله ضابط الكل، شركاء لنصيب الكذاب» (الدسقولية، الباب الثامن ٣١: ٣٤).

وقد لا يقتضى الأمر أن يحتكم الإنسان إلى أسقف الإيبارشية وإلى المحكمة الكنسية أو المجلس الإكليريكى فى الإيبارشية، فقد يكفى الاحتكام إلى كاهن الكنيسة ومجلسها المحلى. فإذا لم ينجح مجلس الكنيسة برئاسة الكاهن فى فض النزاع، فيمكن رفعه إلى أسقف الإيبارشية ومجلسها الإكليركى.

الخطوة الأخيرة:

ويمضى الرب يسوع فى حديثه بالنسبة إلى المسىء والمساء إليه إلى أبعد مدى، فيفترض أن أخاك الذى أخطأ إليك رفض أن يسمع لحكم الكنيسة، ومجلسها المحلى أو الإكليريكى، فما هو موقفك منه بعد ذلك؟

يقول المسيح له المجد: «فإن رفض أن يسمع للكنيسة ، فليكن بالنسبة إليك كوثنى وعشار» (متى ١٨: ١٧).

إذا رفض أخوك أن يسمع لحكم الكنيسة لم يعد مسيحياً، بل أمسى محروماً، مقطوعاً من شركة الكنيسة ولم يعد بهذا الوضع أخاً لك فى دين المسيح، مثله

مثل الوثنى والعشار بالنسبة إليك سواء بسواء ومعنى هذا أنك قد أرضيت ضميرك، إذ صنعت كل ما فى جعبتك من نحوه. فعلى الرغم من أنه هو المخطئ فإنك سعيت إليه لتصلح الأمور بينكما، وبذلت كل ما فى مقدورك من أجل أن تسترد علاقتك به، وتربح صداقته. إن باحتكامك آخر الأمر إلى الكنيسة قد خطوت الخطوة الأخيرة ولن يكلفك أحد بخطوة أخرى بعدها. فعليك بعد ذلك أن تستريح من أمر هذا الخلاف، وتطرحه من قلبك ومن فكرك. فقد خرج عن دائرتك وعن دائرة إختصاصك، وصار أمره مرفوعاً إلى الله فى يوم الحساب. أما أنت فقد رفعت عبء المشكلة عن كاهلك، وقد صارت بين يدى القاضى العادل، ولك أن تردد بعد ذلك قول الوحى الإلهى «إنه يوجد إله قاض فى الأرض» (مزمور ٥٧: ١١) وقوله «الله قاض عادل» (مزمور ٧: ١١)، (٩: ٤) «وهو يقضى للمسكونة بالعدل» (مزمور ٩: ٨) وسلّم الأمر للرب، كما فعل سيدك المسيح من قبل، الذى «إذ تألم لم يكن يهدد، بل كان يسلم لمن يقضى بعدل» (١ . بطرس ٢: ٢٣).

على ذلك النحو نفهم تعليم المسيح له المجد، فى غفران الإساءة للمسيئين .. إن المسيح علمنا بأن نصفح وأن نغفر لمن أساء إلينا بغير حدود. ولكنه فى نفس الوقت علمنا كيف نخطو فى سبيل تحقيق السلام بيننا وبين الأغيار، خطوات متدرجة تفضى بنا أخيراً إلى تحقيق مبادئ الإنجيل، فى مسيرتنا نحو السماء.

من حقك أن توبخ من أخطأ إليك

يقول مخلصنا وربنا يسوع المسيح: «إن اخطأ إليك أخوك، فوبخه. فإن تاب فأغفر له. وإن أخطأ إليك سبع مرات فى اليوم، ثم رجع إليك سبع مرات قائلاً: إننى تائب، فأغفر له» (لوقا ١٧ : ٣، ٤)

فى هذا النص القدسى، يتضح تعليم المسيح له المجد فى موضوع الغفران، كاملاً، وشاملاً.

إنه أولاً: أمر بالغفران لمن أساء إلينا، غفراناً كاملاً وتاماً، مهما كان عدد مرات الإساءة: «إن أخطأ إليك سبع مرات فى اليوم.... فأغفر له» ويلاحظ أن العدد ٧ هو من أعداد الكمال، أى أن الرقم غير مقصود لذاته حرفيا، وإنما هو رمز يشير إلى رقم غير معّين، وغير محدود. والمعنى أنه «إن أخطأ إليك أخوك سبع مرات فى اليوم (أو أى عدد من المرات فى اليوم) .... فأغفر له» وفى موضع آخر من الإنجيل يرد قول المسيح له المجد «لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين سبع مرات» (متى ١٨ : ٢٢).

ثانياً: أنه جعل الغفران مشروطا بتوبة المسىء إليك. «إن أخطأ إليك سبع مرات فى اليوم، ثم رجع إليك سبع مرات قائلاً: أننى تائب، فأغفر له»

ثالثاً: أنه منح المساء إليه الحق فى أن يوبخ المسىء، بقوله «إن أخطأ إليك أخوك، فوبخه. فإن تاب، فأغفر له».

وإذن لقد أعطاك ربك حقاً جديداً. هو حقك فى توبيخ من أخطأ إليك. وحق التوبيخ أقوى من حق المعاتبة. ولئن كانت المعاتبة والتوبيخ من نوع واحد، لكن التوبيخ أقوى فى الدرجة.

على أن المسيحى إذا وبخ أخاه، فتوبيخه له يجب أن لا يخرجه عن الوداعة والسماحة والمحبة التى يجب أن يكون ملتحفا بها دائما. ثم أن توبيخ المسيحى لأخيه الذى أخطأ إليه، توبيخ هادف نحو الخير العام، وخير القريب. فليس هذا التوبيخ من نوع الانفعال غير المرتب أو غير المهذب الذى يندفع به الإنسان منطلقاً كالصاروخ من غير تحكم ومن غير ضبط لنفسه، تنفيساً عن روح الغضب التى امتلأ بها صدره رداً للفعل بمثله، أو أكثر منه. إنما التوبيخ الذى يتمشى مع روح المسيحية هو التوبيخ الهادف إلى تحقيق الصلح والسلام، تنبيها للمخطىء إلى خطئه وإساءته حتى لا يعود إلى تكرار الفعل الخاطىء مرة أخرى. هو إذن توبيخ من نوع نافع وصالح ومفيد، لأنه فى حقيقته تنبيه إلى الخطأ، حتى لا يعود المخطىء مستقبلاً إلى هذا الخطأ مرة أخرى، لا مع المساء إليه، ولا مع غيره من الناس.

ومن هنا كان الغفران بعد التوبيخ، أفضل للخير للعام، ولخير القريب، من الغفران بغير معاتبة أو بغير توبيخ. وهى مرحلة فى الفضيلة، ينتقل بها المسيحى العادى إلى درجة الطبيب الروحى، الذى يهدف بعلاجه للمريض وللمرض، إلى فائدة المريض، وإلى خير المجتمع البشرى بأسره.

وإذن فتعليم المسيح هنا، يرشدنا إلى فضيلة أكثر تقدماً من فضيلتى الاحتمال، والغفران... أنه ينبه إلى فضيلة أعظم.. هى فضيلة كسب المسىء إلى جانب الخير، وتعليمه درساً ينفعه لحاضره ومستقبله، فى علاقاته الشخصية والاجتماعية مع الأغيار.

وبعبارة أخرى، إن من يصفح عمن أساء إليه، مسيحى فاضل، لم يرد الإساءة بإساءة، ولا الشتيمة بشتيمة، بل احتمل الإساءة وصبر عليها، وعلى فاعلها. وهذه هى فضيلة الاحتمال التى يوصينا الكتاب المقدس بها: «فالبسوا كمختارى الله القديسين المحبوبين أحشاء رأفات ولطفاً، وتواضعاً، ووداعة، وطول أناة، محتملين بعضكم بعضاً، ومسامحين بعضكم بعضاً. إن كان لأحد على أحد شكوى. كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً» (كولوسى ٣: ١٢، ١٣). «محتملين بعضكم بعضاً فى المحبة» (أفسس ٣: ٢) ويقول الرسول القديس بولس «فيجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضعاف الضعفاء ولا نرضى أنفسنا» (رومية ١٥: ١).

والمسيح له المجد هو مثلنا الأعلى فى الاحتمال أنه «احتمل الصليب» ثم «احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه» (العبرانيين ١٢: ١، ٣). وكذلك الآباء الرسل احتملوا أخطاء الناس وشرورهم ضدهم فقال القديس بولس «نشتم فنبارك نضطهد فنحتمل» (١ . كورنثوس ٤: ١٢). وقال الرسول أيضاً عن نفسه وعن زملائه «بل نحتمل كل شىء» (١ . كورنثوس ٩: ١٢) لأن «المحبة تحتمل كل شىء» (١ . كورنثوس ١٣: ٧).

على أن الاحتمال وإن كان فى ذاته فضيلة سامية، لكنه فضيلة لها جزاؤها، وجزاؤها هو لصانعها. «طوبى لمن يحتمل... لأنه إذا تزكى، ينال اكليل الحياة الأبدية الذى وعد الرب به للذين يحبونه» (يعقوب ١: ١٢).

هذا الجزاء فردى أو شخصى. أما الذى يضيف إلى فضيلة الاحتمال، وفضيلة الغفران لمن أساء إليه، شيئاً آخر وهو أن «يوبخه» على خطئه، وهو

يقصد بذلك تنبيهه إلى الخطأ حتى لا يعود فيقع فى نفس الخطأ من جديد، بالنسبة إلى أى شخص آخر، فقد صنع بأخيه خيرا، وقيد عنقه بفضل جديد، لأنه لم يحتمل إساءته فقط، بل أشفق عليه من نتائج إساءته أو إساءاته، وأراد أن يجنبه الوقوع فى أمثالها مستقبلاً، فتجلّد، وتجمّل بالصبر، وتقدم إليه وهو مجروح منه، يطلب إليه أن ينتبه إلى نفسه، حتى لا تتفاقم خطاياه، فتزداد دينونته وعقوبته. هذه فضيلة جديدة لا يقوى عليها إلا من بلغ درجة عالية من الحّب، والإيثار الخالص، إيثار الغير على نفسه، غير ناظر إلى ما هو لنفسه فقط، بل إلى ما هو لآخرين أيضاً، (فيلبى ٢ : ٤).

وخلاصة القول أن من يغفر لمن أساء محتملاً إساءته، من دون أن ينبه المسيء إلى خطئه يصنع خيرا واحد، هو خير نفسه هو. أما من يغفر ثم ينبه المخطىء إلى خطئه، فيصنع خيورا كثيرة، بقدر عدد الأشخاص الذين يريحهم بتنبيهه، وبقدر عدد الشرور التى يوقفها بهذا التنبيه أو التوبيخ، بشرط أن يكون محمولاً فى هذا التوبيخ بروح المحبة لقريبه، والإهتمام به، وليس مدفوعاً بانفعالات الغضب غير المرتب، تعبيرا عن محبة الذات، وتنفيساً عن الغيظ الجسدانى.

ماذا صنع مخلصنا؟

ماذا صنع مخلصنا عندما لطمه أحد خدام رئيس الكهنة على وجهه، أثناء المحاكمة؟

هل غفر المسيح لذلك الخادم خطيئته؟

نعم، أنه غفر له، كما غفر لكل الذين أساءوا إليه، حتى صلى من أجلهم على الصليب قائلاً: «يا أبتاه، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما هم فاعلون» (لوقا ٢٣: ٣٤).

ولكنه لم يغفر فقط، بل وبخ المسيء ونبهه إلى خطئه قائلاً: «إن كنت أسأت فى الكلام، فقل لى أين الإساءة. وان كنت أحسنت، فلماذا تضربنى؟» (يوحنا ١٨: ٢٣).

إن مخلصنا يعطينا هنا فى هذا الموقف التفسير الصحيح لتعليمه الذى فاه به فى موعظته على الجبل ، وهو «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الإنسان الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً» (متى ٥: ٣٨، ٣٩)، (لوقا ٦: ٢٩).

فماذا صنع مخلصنا يسوع المسيح عندما لطمه الخادم على وجهه؟

لابد أن يكون تصرف الرب يسوع فى هذا الموقف هو التفسير الصحيح لتعليمه فى الموعظة على الجبل. لأنه من أقدر من فادينا المسيح على أن يقدم فى سيرته المثل الأعلى والنموذج الكامل فى التصرف المسيحى الدقيق؟!

إن سيدنا لم يحول خده الآخر للخادم الذى صفعه، بالمعنى الذى يتبادر لأول وهلة لمن يقرأ تعليمه فى الموعظة على الجبل، لكنه بالأحرى حول خده إذ أدار رأسه نحو الخادم وهو يعاتبه عتاب محبة واسعة، ويوبخه توبيخ الوداعة، المحركة للشعور، والموقظة للضمير قائلاً: «إن كنت أسأت فى الكلام فقل لى أين الإساءة. وإن كنت أحسنت، فلماذا تضربنى»؟

نقول إن فى هذا الموقف إيضاحاً لتعليم الموعظة على الجبل، بل وإجابة صريحة كاملة وعملية على من يسألوننا: هل أحول خدى الآخر لمن يلطمنى على خدى الأيمن؟

وهنا نلاحظ:

أولاً: إن مخلصنا لم يقابل شر من صفعه، بشر نظيره، فلم يضربه على وجهه، مع أنه كان يمكنه أن يجعل الأرض تميد من تحته، وتفتح فاها وتبتلعه حيا.. فلم يفعل.

ثانياً: كان فادينا مستعداً أن يتحمل مزيداً من شر ذلك الرجل الجسور، لو أنه تطاول ومد يده مرة أخرى وصفع الرب يسوع على خده الأيسر. بل إن ربنا يسوع لم يجب بشر، على الآخرين الذين ضربوه وهو يحاكم فى بيت رئيس الكهنة، قال الإنجيل: «وعندئذ راح بعضهم يبصقون فى وجهه ويلكمونه، وراح آخرون يغطون وجهه ثم يلطمونه على وجهه، ويهزأون به ويضربونه قائلين له : «تنبأ لنا أيها المسيح من الذى لطمك الآن». «وراح الخدم يصفعونه» (مرقس ١٤ : ٦٥)، (متى ٢٦ : ٦٧، ٦٨). (لوقا ٣٣ : ٦٤، ٦٥). وكذلك فعل جند بيلاطس البنطى الحاكم الرومانى. يقول الإنجيل أيضاً «ثم

راحوا يبصقون فى وجهه، وأخذوا القصبة وراحوا يضربونه على رأسه، وكانوا يلطمونه، (متى ٢٧ : ٣٠)، (مرقس ١٥ : ١٩)، (يوحنا ١٩ : ٣).

أنه لم يقابل صنيعهم الرديء بشر، فكان يعمل بما علّم به من قبل «شتم ولم يرد الشتيمة بمثلها. تألم ولم يهدد» (رسالة القديس بطرس الأولى ٢ : ٢٣).

هذا الاستعداد لاحتمال الإساءة إلى أبعد مدى هو المقصود بقوله «من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً» كالمقصود من قوله «ومن أراد أن ينازعك ويأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضاً. ومن سخرك بأن تسير ميلا واحدا فاذهب معه اثنين» (متى ٥ : ٤٠، ٤١) فلا يعقل أن يسخر المسيحى ليسير ميلا فيذهب مع من سخره ميلين من دون مبرر، ومن غير أن يطلب منه ذلك، وإلا كان مجنوناً مخبولاً. إنما المعقول أن يكون المقصود من تعليم الرب يسوع أن يكون المسيحى مستعدا - فى سبيل السلام - أن يخطو خطوة أخرى، أبعد مدى من الخطوة الأولى إذا طلبوا منه ذلك، أو إذا رأى أن السلام يقتضى ذلك. أى أن يكون مهيأ لكل تضحية تطلب منه من أجل السلام، ولو كانت هذه التضحية أكبر من التضحية الأولى، وأعظم منها.

ولا نظن أن المسيح له المجد، بمعاتبته للخادم الذى صفعه على وجهه، أنه نقض تعليمه فى الموعظة على الجبل، إذ لم يحول للخادم خده الأيسر. إن المسيح أدار بالفعل وجهه الآخر، جسدياً وروحياً.

أما جسدياً فلأنه لابد أن يكون خده الأيمن قد تحول بقوة الصفعة عن وضعه الطبيعى إلى اليسار، فلم يبق خد المسيح كذلك، لكنه أداره له المجد مرة

أخرى نحو الخادم الذى صفعه، فصار خده الأيسر فى مواجهة الضارب، لو أراد أن يعيد الكرة على هذا الخد الأيسر...

وأما روحياً، فلأن المسيح حول الإهانة إلى الجانب الآخر، فكان كالطبيب إذا صفعه المريض، لم يغضب للصفعة لأنها من مريض، وإنما استدل من هذه الصفعة على سوء صحة المريض، وأنه ما كان يصفع طبيبه إلا لأن الحمى قد صعدت إلى دماغه فأفقدته الوعى، ومن هنا وجه المسيح يسوع إلى الخادم عتاباً يرده إلى وعيه، ويستثيره على التفكير فى تصرفه وما فيه من خطأ، حتى يندم على خطئه، وحتى لا يعود إلى هذا الفعل مرة أخرى لا مع المسيح ولا مع غيره، فينقذ نفسه من العقوبة الأبدية.

أن المعاتبة والتوبيخ هنا، فضيلة أعظم من فضيلة الاحتمال مع الصمت، لأن الاحتمال مع الصمت فضيلة لها جزاؤها لصاحبها. أما المعاتبة ففضيلة تتميز بالغيرية والإيثار، لأنها تدل على إهتمام بالمسيء، وإشفاق عليه من نتائج إساءته، وتنبيه له ينفعه للحاضر والمستقبل، كما ينفع آخرين من يشهدون ويراقبون. ولعل الرجل خجل بعد ذلك من نفسه لأنه لم يحر جوابا على سؤال المسيح: «إن كنت أسأت فى الكلام، فقل لى أين الإساءة. وإن كنت أحسنت، فلماذا تضربنى؟» ولعله انزوى وأخذ لنفسه درساً نفعه كل أيام حياته.

وماذا صنع الآباء الرسل ؟

سجل لنا الوحى الإلهى موقفا من مواقف الآباء الرسل يستحق النظر والتأمل.

كان القديس بولس الرسول يخطب فى أورشليم أمام ليسياس الأمير وأمام رؤساء الكهنة وكل مجمعهم، وقال: أيها الرجال الأخوة أنى بكل ضمير صالح قد عشت لله إلى هذا اليوم. فأمر حنانيا رئيس الكهنة الواقفين عنده أن يضربوه على فمه. حينئذ قال له بولس: سيضربك الله أيها الحائط المبيض. أفأنت جالس تحكم علىَّ حسب الشريعة وأنت تأمر بضربى مخالفاً للشريعة. (أعمال الرسل ٢٣ : ١ ـ ٢).

ونحن لا نعلم على وجه اليقين إذا كان القديس بولس قد ضربه القائمون إلى جواره بحسب الأمر الصادر إليهم من حنانيا رئيس الكهنة، وأغلب الظن أنهم صنعوا به ذلك. ولم تكن هذه هى المرة الأولى أو الوحيدة التى ضرب فيها رسول الجهاد. فقد ضربوه هو وزميله سيلا بالعصىَ فى مدينة فيلبى، وجلدوهما وأثخنوهما بالجراح (أعمال الرسل ١٦ : ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧)، وكذلك فعلوا به فى أورشليم (أعمال الرسل ٢١ : ٣٢)، (٢٢ : ٢٤). ولقد روى لأهل كورنثوس بعض أتعابه وآلامه التى احتملها من أجل المسيح، وذلك دفاعاً عن حقيقة رسوليته فقال مقارناً نفسه بسائر الرسل: «أنا فى الأتعاب أكثر، ... وفى الضرب أكثر... جلدنى اليهود خمس مرات أربعين جلدة إلاَّ واحدة. وضربت بالعصىَ ثلاث مرات، ورجمت مرة» (٢ . كورنثوس ١١ : ٢٣ ـ ٢٥). وقال مرة أخرى لأهل كورنثوس: «بل نظهر فى كل شىء أنفسنا كخدّام الله فى صبر

كثير، فى شدائد فى ضرورات فى ضيقات، فى ضربات...» (٢ . كورنثوس ٦ : ٤، ٥) .

فالقديس بولس وغيره من رسل المسيح لم يقاوموا الأشرار، ولم يردوا الشتيمة بشتيمة بل احتملوا شر الناس من أجل الإنجيل. يقول القديس بولس: «وإلى هذه الساعة نحن نجوع... ونلطم... نشتم فنبارك، نضطهد فنحتمل...» (١ . كورنثوس ٤ : ١١، ١٢) .

أما أن القديس بولس جاوب رئيس كهنة اليهود بقوله: «سيضربك الله أيها الحائط المبيّض» فلم يكن جوابه هذا من نوع الشتم، كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، وإنما كان قوله نبوءة على ما سوف يصيب رئيس كهنة اليهود من ضربة إلهية، بدليل أنه يستخدم صيغة المستقبل فى عبارته «سيضربك» . ذلك لأن رئيس كهنة اليهود سلك بالنفاق على عكس ما كانت تتطلبه مسئوليته الكهنوتية، فصار يحجز الخير عن الناس، شأنه شأن «الحائط المبيض» أو كما قال مخلصنا يسوع المسيح، يصف قادة اليهود بأنهم يشبهون «القبور المبيضة» (متى ٢٣ : ٢٧) . ولذلك ضربه الرب كقول القديس بولس، ونزع منه كهنوته وهذا هو معنى التجاهل الأليم الذى أبداه القديس بولس لكهنوت الرجل عندما قال له الحاضرون ، أتشتم رئيس كهنة الله؟ فأجاب القديس بولس «لم أكن أعرف أيها الأخوة أنه رئيس كهنة» على الرغم من أن القديس بولس كان يعرفه معرفة شخصية وقد تعامل معه يوم أن كان يضطهد المسيحيين (أعمال ٩ : ١، ٢)، (٢٢ : ٥)، (٢٦ : ٢، ٧)، وعلى الرغم من أنه لابدّ أن يكون معروفاً على الأقل من زيه، بل أن القديس بولس، كان يخطب فى مجمع اليهود وكان

حنانيا رئيس المجمع وعندما أمر حنانيا أن يضربوه على فمه قال له «أفأنت جالس تحكم عليَّ حسب الشريعة» ... وغير ذلك من بينات تدل على أن القديس بولس كان يعلم تمام العلم أن حنانيا رئيس كهنة اليهود. وأما قوله «لم أكن أعرف أيها الأخوة أنه رئيس كهنة» فهو تعبير عن الاستنكار التام لكهنوت حنانيا، وينبيء عن عدم الاعتراف به رئيس كهنة بعد أن نزع الله كهنوته منه.

ومهما يكن من أمره، فالرسول بولس لم يشتم رئيس كهنة اليهود كما قد يتبادر لمن يقرأ عبارة الرسول قراءة سطحية، لكنها نبوءة من جهة ثم هي حكم قضائي من صاحب سلطان رسولي، كرسول للمسيح، من جهة أخرى. أن الرسول بولس لم يرد الشتيمة، ولم يقاوم شر الرجل بشر نظيره، لكنه وبخه على تصرفه لعله يفيق من غفلته، ويرجع عن شر قلبه.

أيهما الأعظم ؟

وبعد، فأيهما الأعظم والأفضل: أن يحتمل المسيحى إساءة من يسىء إليه أم ينظر إليه بإشفاق كما ينظر الطبيب إلى المريض؟

إن فضيلة الاحتمال مجردة عن العتاب والتوبيخ عند الاقتضاء، فضيلة رواقية نادى بها الفلاسفة الرواقيون، الذين قالوا: إن الفضيلة العظمى هى فى ضبط النفس، وكظم الغيظ. لكن أساس هذه الفضيلة عند فلاسفة الرواق ليس هو الحب والإشفاق على المخطىء كمريض يحتاج إلى العلاج، بل أساسها عندهم هو الكبرياء والتعالى والترفع عن الإسفاف والتنزل بمستوى الإنسان إلى مستوى المسىء إليه، على الرغم مما قد ينطوى عليه قلب المساء إليه من غيظ وحنق وكراهية وبرغبة فى الانتقام. هذه الروح المتكبرة المتغطرسة فى الاحتمال وضبط النفس السائدة عند كثير من الناس هى التى عبر عنها الشاعر العربى بقوله:

يخاطبنى السفيه بكل قبح وأكره أن أكون له مجيباً

أما فضيلة الاحتمال المسيحى فتنبع من الحب والإشفاق ومعاملة المسىء كمريض يحتاج إلى علاج، وتغذيها رغبة الخير، خير القريب الخاص وخير البشرية العام. ولذلك فإنها تكتمل بالمعاتبة والتوبيخ لأنهما نافعان بل ضروريان لتحقيق هذا الخير العام والخاص.